من كُنَّاشة النَّوادر

للأستاذ عبد السلام هارون

تراثنا العربى زاخر بأنواع شتى من المعارف بها جلاء لكثير من غوامض العلم، كما أنه مشحون بالطرائف وغذاء الذهن والروح واللسان أيضاً .

وقد كان من سوالف الأقضية أن أقيد تلك الشوارد ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، فإن الحكيم العربى كان يقول وقوله حق : « العلم صيد والكتابة قيد» وإذا ضاع القيد ذهب الصيد .

وكثيراً مايقرأ الإنسان شيئا فيعجبه ، ويظن أنه قد علق بذاكرته ، فإذا هو فى الغد قد ضاع منه العلم ، وضاع معه مفتاحه ، فانتهى إلى إحيرة فى استعادته واسترجاعه .

والباحثون ، ولا سيما فى أيامنا هذه ، يقيدون هذه المعارف فى جذاذات يرجعون إليها عند الحاجة ، ولكنى سلكت طريقا أوثق من طريق الجذاذات ، هو دفتر الفهرس ، وهو الذى سميته « كناشة النوادر» ، أقيد فيها رءوس المسائل مرتبة على حروف الهجاء ، مقرونة بمراجعها

وقد وجدت أن هذه التسمية ، بما مافيها من التوليد أو التعريب ، أقرب فى الدلالة وأدق فى التعبير .

فى القاموس «الكناشات بالضم والشد: الأصول التى تتشعب منها الفروع » وعلق عليه صاحب تاج العروس بقوله : «نقله الصاغانى عن ابن عباد» وإذن فهنا أصل عربى يولد منه كناشة الأوراق .

ويعقب عليه صاحب التاج أيضاً بقوله: « قلت ومنه الكناشة : الأوراق تجعل كالدفتر يقيد فيها الفوائد والشوارد للضبط . هكذا يستعمله المغاربة . واستعمله شيخنا — يعنى ابن الطيب الفاسى اللغوى — فى حاشيته على هذا الكتاب كثيراً » ، يعنى حواشى ابن الطيب على القاموس .

أما الخفاجى فى شفاء الغليل فيضبطه بلفظ كناش بضم الكاف وتخفيف النون بزنة غراب ، ويقول : إنه لفظ سريانى معناه المجموعة والتذكرة . وقد وقع هذا اللفظ كثيرا فى كلام الحكماء ، وسموا به بعض كتبهم .

(*) انظر التعقيبات على البحث فى محاضر جلسات مؤتمر الدورة الخامسة والأربعين (جلسة الخميس ٩ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٩ هـ ، الموافق ٦ من مارس سنة ١٩٧٩ م) .

وببحثى فى إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى المتوفى سنة ٦٤٦ وجدته يذكر الطبيب « يوسف الساهر » ويقول : «كان طبيبا فى أيام المكتفى الخليفة العباسى المتوفى سنة ٢٩٥» ثم يسرد من تصانيف يوسف الساهر هذا : «كتاب الكناش» . وقال : إنما سمى الساهر لأن سرطاناً كان فى مقدم رأسه ، فكان يمنعه النوم ،فلقب الساهر من أجل ذلك. ويقول القفطى : وإذا تأمل متأمل كناشه رأى فيه أشياء تدل على أنه كان به هذا المرض .

فهذا من أقدم التسميات . كما أن من أقدمها ماعثرت عليه فى كشف الظنون ، من (الكناش المنصورى) للطبيب المعروف محمد بن زكريا الرازى المتوفى سنة ٣١١ صاحب الحاوى والطب الملوكى . ألف هذا الكناش للأمير منصور ابن إسحاق بن أحمد السامانى المتوفى سنة ٣٠٢ .

وكذلك كناش أعين بن أعين الطبيب المصرى المتوفى سنة ٣٨٥ .

وأعتقد أنى بذلك قد أطلت واستطردت فى تعليل تسمية مذكراتى هذه باسم «كناشة النوادر» . ولكنى بذلك لم أخرج عن موضوع محاضرتى هذه .

وقد قيدت فى هذه الكناشة على مدى اشتغالى بالبحث والتحقيق زهاء نصف قرن نحو ثلاثة آلاف مذكرة هى رءوس مسائل، أرجو إن مد لى فى أجل الحياة أن أنشرها مفصلة على هذا النحو الذى أشرت بتقديمه.

فمن طريف ماقيدته فى هذه الكناشة تفكير أسلافنا القدماء فى أمور حضارية يزهو بها عصرنا الحاضر ويعدها من مفاخره .

جراحة التجميل :

جاء فى ترجمة الصحابى الجليل المقداد بن الأسود الكندى أنه كان عظيم البطن ، وكان له غلام رومى فقال له : أشق بطنك ، فأخرج شيئا من شحمه حتى تلطف أى تصير رشيقاً — فشق بطنه ثم خاطه . فمات المقداد وهرب الغلام .

ولعل هذا أول تفكير فى جراحة البطن للتجميل ، نسمع به فى عالمنا العربى القديم، القديم ، الذى سبق العالم الغربى فى كثير من أمهات الحضارة . الإصابة ٨١٧٩

محو الامية :

كان العرب حراصاً على إدماج أبنائهم فى التعليم ، ولاسيما حفظ القرآن الكريم ، بل على إجبارهم عليه ، استجابة لأمر الكتاب . فاذا أفلت أحدهم من قيد التعليم صغيراً رد إليه كبيراً .

جاء فى جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٨٣ فى ذكر خالد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان قوله : « وهو الذى أمر به يزيد بن عبد الملك أن يحمل إلى الكتاب حتى يتعلم القرآن مع الصبيان . فمات كمدا » .

فهذا سبق عربى فى الحرص على استدراك تعليم من فاته التعليم ، وفى حرص الولاة على تعميم التعليم .

تنظيم خدمة العملاء :

يزدحم الناس على العامل أو التاجر ، فيحدث ذلك اضطراباً أو تذمراً أو صراعاً ، لايعالجه إلا تنظيم العملاء ، وهو الذى انتهى الأمر فيه فى مدينتنا الحديثة بنظام الصفوف ، كما هو واقع الآن فى التموين والمصارف ، ودور اللهو ونحوها .

فلننظر إلى هذا النص من كتاب الحيوان للجاحظ ٧ : ٢٦٢

وكان أهل المربد يقولون : لانرى الإنصاف إلا فى حانوت فرج الحجام ، لأنه كان لايلتفت إلى من أعطاه الكثير دون من أعطاه القليل ، ويقدم الأول ثم الثانى ثم الثالث أبداً حتى يأتى على آخرهم . على ذلك يأتيه من يأتيه . فكان المؤخر لايغضب ولايشكو .

خيال الظل :

وهو الأصل الأول للسينما المعاصرة ، إذ تتحرك الأشخاص والأشكال خلف ستر وقد سلط عليها الضوء ، فتبدو صورها متحركة من خلف الستر .

ومن أقدم النصوص التى سجلت فيها هذه الظاهرة . قول ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ أى منذ ثمانية قرون :

رأينا خيال الظل أعظم عبرة
لمن كان فى أوج الحقيقة راقى
شخوص وأشكال تمر وتنقضى
وتفنى جميعا والمحرك باقى

النجوم الزاهرة ٦ : ١٧٦ .

رايات العرب :

قد نظن أن رايات العرب كانت ساذجة تتميز باختلاف ألوانها فحسب . والواقع أنه كان لمختلف القبائل فى أعلامها رموز وإشارات خاصة . قال المرزوقى فى شرح المفضليات : «كانت راية تميم على صورة العقاب ، وراية بنى أسد على صورة الأسد» . شرح المفضليات ٣٤٧ دار المعارف .

أعياد الميلاد :

وجدت الاحتفال بها قديماً قبل سنة ٢٠٩ وعلى صورة رائعة غير مانشهده اليوم .

قال المبرد : كان سعيد بن سلم إذا استقبل السنة التى يستقبل فيها عدد سنيه أعتق نسمة ، وتصدق بعشرة آلاف درهم : فقيل لمدينى : إن سعيد بن سلم يشترى نفسه من ربه بعشرة آلاف درهم . فقال المدينى : إذن لايبيعه . كامل المبرد ٤٣٣ ليبسك .

وكانت وفاة سعيد بن سلم بن قتيبه الباهلى سنة ٢٠٩ كما فى النجوم الزاهرة .

وقد تظن أن الاحتفال بعيد ميلاد المسيح بدعة حديثه ، وفى الحق أنه بدعة قديمة جدا . فنى كتاب التحف والهدايا للخالدين ص ٩٧ :

كتب الحسين الضحاك إلى أحمد بن يوسف الكاتب ليلة عيد الميلاد يستهديه شمعا :

وليلة ميلاد عيسى المسيـ
ـح قد طالبتنى بميثاقها
فهذى قدورى على نارها
وفاكهتى ملء أطباقها
وبنت الدنان فقد أبرزت
من الخدر تجلى لعشاقها
فكن مهديا لى فدتك النفوس
فجودك ممسك أرماقها
نظائر صفراً غدت فتنة
بلطف أنامل حذاقها
ومثل الأفاعى إذا ألهبت
وللروم زرقة أحداقها
ولم أر من قبلها أنفساً
تذيب الجسوم بإحراقها
وإن مرضت لم يكن برؤها
بشىء سوى ضرب أعناقها

وكانت وفاة أحمد بن يوسف الكاتب وزير المأمون سنة ٢١٣ ه.

المراة :

من أعجب ماوجدته فى النصوص القديمة ماذكره صاحب القاموس فى مادة (حسن) أنه كان لعبد الملك بن مروان وهو من هو ، مرجلة تتعهد شعره وترجله . ولايقف عند ذلك بل يعين اسمها فيقول : « واسمها حسينة » .

وهذا مظهر حضارى ليس من السهل أن يدور بخلد أحد من الباحثين .

و « حسينة » أيضاً : علم نادر من أعلام النساء ، لم أجد نظيره إلا فى « حسينة اليسارية » صاحبة ابن ميادة الشاعر . وكانت جميلة ، منسوبة إلى آل يسار من موالى عثمان رضى الله عنه . وكانت حسينة هذه عند رجل من قومها يقال له عيسى بن إبراهيم ابن يسار . وكان ابن ميادة يزورها . وفيها يقول :

ستأتينا حسينة حيث شئنا
وإن رغمت أنوف بنى يسار

ودخل عليها زوجها عيسى يوما فوجد ابن ميادة عندها ، فهم به هو وأهلها ، فقاتلهم ابن ميادة ، وعاونته عليهم حسينة صاحبته حتى أفلت ، وقال فى ذلك :

لقد ظلت تعاونني عليهم
صموت الحجل كاظمة السوار
وقد غادرت عيسى وهو كلب
يقطع سلحه خلف الجدار

الأغانى ٢ : ١١٠

أضخم مسيرة للنساء :

كانت وفاة الإمام العظيم أحمد بن حنبل فى بغداد سنة ٢٤١ مثار حزن وأسى فى ربوع بغداد . ووقع المأتم والنوح فى أربعة أصناف من الناس : المسلمين ، واليهود والنصارى ، والمجوس ، كما يقول البغدادى فى تاريخ بغداد .

ويروى بسنده إلى بنان بن أحمد القصبانى أنه حضر جنازة أحمد بن حنبل مع من حضر . قال : فكانت الصفوف من الميدان إلى قنطرة ربع القطيعة ، وحرر من حضرها من الرجال ثمانمائة ألف ، ومن النساء ستين ألف امرأة. فأى ضخامة هذه ، وأى حضارة تلك وأى تنسيق ونظام ؟ ؟ تاريخ بغداد ٤ : ٤٢٢

نص نادر فى النساء :

أورد البخارى فى كتاب المغازى ٥ : ١٥٦ فى غزوة الطائف أن أم سلمة رضى الله عنها قالت: دخل على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعندى مخنث ، فسمعه يقول لعبد الله بن أمية : ياعبد الله ، أرأيت أن فتح الله عليكم الطائف ، فعليك بابنة غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لايدخلن هؤلاء عليكم » .

والذى يعنينا فى هذا النص هو تفسير تقبل بأربع وتدبر بثمان . ما الأربع وما الثمانى ؟ وكثيراً ما سئلت عن هذا التأويل . وقد أورده ابن حجر فى فتح البارى ٨ : ٢٥ و ١٠٠ : ٢٨٠ وقال : معناه أنها تقبل بأربع من العكن . والعكنة ، بضم العين : ماانطوى وتثنى من لحم البطن سمناً. وأما إدبارها بالثمانى فلأن أطراف العكن الأربع التى فى بطنها تظهر ثمانية فى جنبيها ، أربعة عن يمين ، وأربعة عن شمال .

وقد عثرت على رواية أخرى فى اللسان (ستت) : « فإنها تمشى على ست إذا أقبلت ، وعلى أربع إذا أدبرت » . يعنى بالست يديها وثديها ورجليها . أى إنها لعظم ثديها ويديها كأنها تمشى مكبة . والأربع رجلاها وأليتاها ، وأنهما كادتا تمسان الأرض لعظمهما .

تأصيل بعض الكلمات :

١ ـ البلاط بمعنى قصر الملك أو الخليفة . كثيراً ما نقرأ : تشريفات البلاط ، أخبار البلاط ، البلاط الملكى . والمعروف فى اللغة أن البلاط كسحاب : الأرض المستوية الملساء . وهو أيضا : الحجارة التى تفرش فى الدار .

وهو كذلك كل أرض فرشت بالحجارة أو بالآجر. وفى اللغة أيضاً أن البلاط اسم لعدة مواضع وقرى ، منها بلاط مدينة الرسول الكريم بين المسجد والسوق وهو موضع مبلط. فالكلمة عربية قديمة كما أن استعمالها بمعنى القصر قديم جداً كذلك . وجدته عند المسعودى المتوفى سنة ٣٤٥ عند الكلام على انتزاع نقفور للملك من رينى امرأة اليون بن قسطنطين فى سنه ١٨٧ ، وهى فى بلاط بنته بالقسطنطينية. يقول المسعودى :

المسعودى : «والبلاط : القصر. وفى هذا البلاط مبناء عليه سلسلة ، فيه ينزل رسل العرب إذا قدموا للفداء . التنبيه والإشراف ١٤٢.

وجاء فى المعجم الوسيط أن البلاط قصر الحاكم وحاشيته وذكر أن الكلمة معربة والقول بأنها معربة مع أنها عربية اللفظ وعربية الاستعمال أمر يحتاج إلى تصحيح .

فقد ورد فى تسمية المواضع العربية بيت البلاط ؛ من قرى دمشق بالغوطة. وكذلك البلاط قرية بحلب يقول فيها الشاعر :

لولا رجاؤك مازرنا البلاط ولا
كان البلاط لنا أهلا ولا سكنا

ودار البلاط : موضع بالقسطنطينية كان سيف الدولة يحبس فيه الأسراء، وقد ذكره المتنبى فى شعره كما ذكره أبو العباس الصفرى شاعر سيف الدولة وكان محبوساً فضربه مثلا وقال :

أرانى فى حبسى مقيما كأننى
ولم أغز فى دار البلاط مقيم

وما بالنا نذهب بعيداً وشاعرنا الجاهلى أبو دؤاد الإيادى يذكر البلاط بمعنى القصر المشيد فى قوله :

وأرى الموت قد تدلى من الحضر
على رب أهله الساطرون
صرعته الأيام من بعد ملك
ونعيم وجوهر مكنون

ولقد كان فى كتائب خضر
وبلاط يشاد بالآجرون

ديوانه ٣٤٧ والتاج واللسان (بلط) والمعرب للجواليقى ٢١

البورى ضرب من السمك :

وهى تسمية لنوع من السمك شائعة فى مصر ، وقد يظن بعضهم أنها تسمية حديثة ، حتى ذهب كثير إلى أنها نسبة إلى بورسعيد . وإنما هى تسمية قديمة جداً ، يرجع العهد بها إلى ما قبل زمن ياقوت ابن عبد الله الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ قال فى معجم البلدان : « بورة : مدينة على ساحل بحر مصر قرب دمياط ، تنسب إليها العمائم البورية والسمك البورى، ومنها محمد ابن عمر من حفص البورى » .

الشوربة والشوربجى :

الشوربة هى بالعربية الحساء أو المرق ولاعلاقة لها بمادة (شرب) العربية .

جاء فى الفتح الوهبى ٢:١٢٨ وهو شرح لتاريخ أبى نصر العتبى عند ذكر مجاعة وقعت بنيسابور سنة ٤٠١ : « الشورباجه فارسى معرب بمعنى المرق » . وأنشد قول أبى محمد الزوزنى :

والباب أغلقه عليك
موثقا منه رتاجه
لا يقتضيك الجائعون
فيطبخونك شورباجه

وفى معجم استينجاس ٧٦٥ أن شورباج تعريب للفارسية القديمة « شوربا » . ومن طرق التعريب عند العرب زيادة الجيم فى نهاية الكلمات المعربة كما قالوا فى موزه بمعنى الخف موزج ، وفى نشاسته بمعنى النشا : نشاستج ، وفى بنفشه لتلك الزهرة بنفسج ، وفى نبهره بمعنى الباطل بهرج ، وفى ديبا لضرب من الحرير : ديباج.

أما الشوربجى فهى نسبة تركية إلى «شوربا» لصانعها أو القيم عليها .

والمعجم الوسيط يجعل الشربة عربية مولدة إذ قال : « الشربة : الحمرة فى الوجه ، ومقدار ما يروى من الماء ، والحساء . مولد» .

والحق أنها فى استعمالها بمعنى الحساء معربة تعريبا حديثا مأخوذة من التركية الآخذة من الفارسية . وعربيتها : المرق والحساء .

الفذلكة :

فى القاموس : « فَذْلَكَ حسابه : أنهاه وفرغ منه، مخترعة من قوله إذا أجمل حسابه فذلك كذا وكذا » وهذا إشارة إلى أن الكلمة منحوتة .

ومرجع صاحب القاموس هو نص الصاغانى المتوفى سنة ٦٥٠ فى التكملة : ٢٢٧٥ وبعده فى التكملة : « وهذه الكلمة مثل فهرس الأبواب فهرسة، إلا أن فذلك ضارب بعرق فى العربية » .

وصاحب القاموس والصاغانى كلاهما لم ينص على الفذلكة وإن كان مفهوماً أنها جملة الحساب والعدد .

وذكر المعجم الوسيط « الفذلكة » ، وفسرها بأنها مجمل ما فصل وخلاصته » وقرنها بعبارة « محدثة » مع أن الكلمة مولدة توليدا قديما جدا . فقد وجدتها فى الفهرست لابن النديم ص ١١٣ بمعنى نهاية التأليف وحصيلته . قال فى ترجمة أبى عمر الزاهد المتوفى سنة ٣٤٥ : « ثم جمع الناس على قراءة أبى إسحاق الطبرى ، وسمى هذه القراءة الفذلكة » .

وكانت وفاة ابن النديم أيضا سنة ٣٨٥ فالكلمة عمرها أكثر من ألف سنة . وليست محدثة كما ذكر المعجم الوسيط .

كلمة الصابون :

فى المعجم الوسيط أن الصابون الذى تغسل به الثياب والأبدان ونحوها كلمة دخيلة . وفى القول بأنها دخيلة نظر . فصنيع صاحب القاموس يفهم منه أن الكلمة عربية ، إذ يقول : و« الصابون معروف حار يابس مفرح للجسد » .

وصاحب شفاء الغليل لم يذكره فى قليل أو كثير . وهو إيحاء بأنه عربى .

أما الجواليقى (٥٤٠) فى المعرب فقال إنه أعجمى ، يعنى أنه معرب وهو فى ذلك موافق لابن دريد (٣٢١) الذى قال فى الجمهرة ٣ : ٣٩٠ : « فأما طالوت

وجالوت وصابون فليس بكلام عربى فلا تلتفت إليه . وإن كان طالوت وجالوت فى التنزيل ، فهما اسمان أعجميان . وكذلك داود » .

وقال صاحب اللسان « : والصابون الذى تغسل به الثياب معروف . قال ابن دريد : ليس من كلام العرب » .

وجاء الأزهرى بعد ابن دريد بنحو نصف قرن فذكر أنه معرب.

وكان الصابون معروفا زمان ابن قتيبة المولود سنة ٢١٣ يقول فى كتابه المعارف ٢٤١ : « وأول من عمل الصابون سليمان ابن داود عليهما الصلاة والسلام » .

فكيف يقال فى كلمة مثل هذه إنها دخيلة ؟! لعل أقل ماتوصف به أنها معربة ، ومعربة تعريبا قديما أصيلا .

ولقد أنصفها العلامة ابن الطيب الفاسى شيخ صاحب تاج العروس إنصافا بينا ، قال صاحب تاج العروس : « قال شيخنا — يعنى ابن الطيب — : هو مما توافقت فيه جميع الألسنة العربية والفارسية والتركية وغيرها» .

ولقد ذهب استينجاس فى معجمه ٧٧٧ إلى أن الكلمة فى الفارسية مأخوذة من العربية ورمزها بالرمز A .

فى مجال التعبير :

كثيرا مايحار المرء فى اختيار اللفظ او العبارة ليعرب عما فى نفسه .

١ — مثال ذلك أن يريد البكاء على عزيز عليه فلاتجيبه عينه ولادمعته ، وقد وجدت فى اللسان « الليث : التغبيض : أن يريد الإنسان البكاء فلا تجيبه العين » قال أبو منصور : وهذا حرف لم أجده لغيره» ونحوه فى القاموس .

٢ — ويريد أن يعبر عمن يسخر بغيره فيستعمل حركة معينة كأن يحرك له أنفه ويقبضها.

وقد وجدت العرب قد عبروا عن هذا المعنى الدقيق المشاهد فى كل يوم ففى اللسان : « ابن الأعرابى : كنّص إذا حرك أنفه استهزاء. ويقال كنّص وجه فلان ، إذا استهزأ به » ونحوه فى القاموس.

٣ — ويريد أن يعبر عن الواحدة من العظم بلفظ العظمة ، فيزجره علماء اللغة المعاصرون ، ويأخذونه بأن يقول عظم للجمع وللواحد أيضاً إن أراد .

وقد وجدت فى تهذيب الأزهرى فى مادة (سهم) نقلا عن النضر بن شميل تلميذ الخليل ، وكان ممن أقام بالبادية دهراً طويلا مقداره أربعون سنة « وجدت هذا النص فى مجال الكلام على سهام العرب : « والمريخ : الذى على رأسه العُظيمة ، يرمى بها أهل البصرة بين الهدفين » :

ونقل هذا النص عنه صاحب اللسان .

ولا ريب أن لفظ « العظمة مه عر عن مؤنث هو العظمة ، فتكون العظمة واحدة للعظم .

٤ — ويتردد فى ذكر أيام العرب ومغازيها فى التعبير عن قلة القوم بأنهم «أكلة جزور» . وقد حدث هذا فى غزوة بدر الكبرى ، حين قال أبو جهل لجماعة قريش : «إن محمداً وأصحابه أكلة جزور » .

وهى عبارة تحتاج إلى تفسير لم تذكره المعاجم . وليس أعلى وأوثق من تفسير الرسول الكريم لها حين سأل الغلامين اللذين وجدا على الماء ، قال لهما : كم القوم ؟ قالا : لا ندرى . قال . كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشرا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « القوم فيما بين التسعمائة والألف » .

وتفسيره أن أكلة الجزور يكونون مائة عداً .

٥ — وكثيرا ما نسمع هذا القول فى التعبير عن هوان الرجل الكريم فى بلدة : «ليس لنبي كرامة فى وطنه » .

ونظنه حكمة حديثة ، أو نرجعه إلى عصور الإسلام الأولى على أكثر تقدير . والحق أنه أقدم من ذلك بكثير . عثرت عليه فى إنجيل يوحنا ٤ : ٤٤ . ونصه : «وبعد اليومين خرج من هناك ومضى إلى الجليل ، لأن يسوع نفسه شهد أنه ليس لنبي كرامة فى وطنه » .

وفى ظل هذا المعنى يقول المتنبي فيما قال فى صباه :

أنا فى أمة تداركها الله
غريب كصالح فى ثمود

وهو مسبوق فى هذا بقول أبى تمام :

كان الخليفة يوم ذلك صالحا
فيهم وكان المشركون ثمودا

من نوادر التسمية

لأهل المغرب والأندلس بعض تسميات لاتجرى على المألوف . فنجد من أسمائهم : حمود . ومنهم بنوحمود الأندلسيون المنتمون إلى حمود بن ميمون بن أحمد بن على . وكان جدهم أحمد بن على هذا يسمى حموداً أيضاً كما فى جمهرة ابن حزم .

ومن أسمائهم أيضا « عبود » . وحمود وعبود تسميتان عربيتان فصيحتان . ومن ضرب المثل به من العرب « عبود » نالوا فيه : « أنوم من عبود » . وكان عبداً حطابا أسود ، فغبر فى محتطبه أسبوعاً لم ينم ، ثم انصرف فبقى أسبوعا نائما . فضرب المثل به لمن ثقل نومه .

وإذن فليس الأمر غرابة التسمية فحسب . ولكنى وجدت نصا لأبى حيان الأندلسى فى كتابه « النضار » الذى ذكر فيه أول حاله

واشتغاله ، ورحلته وشيوخه ، يقول فيه : « وهم يسمون عبد الله عبودا ، ومحمداحمودا» ذكر هذا النص السيوطى فى البغية ٦١

ونستطيع من نص ابن حزم السابق أن نقول إنهم يسمون محمدا أيضا حمودا ، كما سموا أحمد حمودا . فكأن هذه الصيغة عندهم تسمية تدليل ، كما هو الشائع فى التسمية فى وقتنا هذا .

وأهل المغرب والأندلس يتسمون بزيدون وحمدون وفتحون ورحمون ، وحسون وحفصون وسمحون .

وتعليل هذه التسمية قد يرجع إلى إرادة التفخيم بصيغة كصيغة الجمع . أو هو مطل ، أى فى الإعراب مع التنوين . وتعرب هذه الأسماء إعراب الممنوع من الصرف . وفى الأشمونى ٣ : ٢٦٣ أن أبا على يمنع صرفها للعلمية والعجمة ، ويرى أن حمدون وشبهه من الأعلام المزيد فى آخرها واو بعد ضمة ، ونون لغير جمعية ، لا يوجد فى استعمال عربى مجبول على العربية ، بل فى استعمال عجمى حقيقة أو حكما ، فألحق بما منع صرفه للتعريف والعجمة المحضة .

وهذا أيضا من النصوص النحوية النادرة .

وفيما يتعلق بالكنى والألقاب ، قال أبوحيان فى تفسيره ، عند قوله تعالى : « ولا تنابزوا بالألقاب » . قال : « وفى الحديث : كنوا أولادكم . قال عطاء فى تعليل ذلك : مخافة الألقاب . وعن عمر : أشيعوا الكنى فإنها سنة » .

ثم يقول أبو حيان : « ولاسيما إذا كانت الكنية غريبة لايكاد يشترك فيها أحد مع من تكنى بها فى عصره ، فإنه يطير بها ذكره فى الآفاق ، وتتهادى أخباره الرفاق » .

ويستدل أبو حيان على أثر الكنية من واقعه الشخصى بقوله : « كما جرى فى كنيتى بأبى حيان ، واسمى محمد ، فلو كانت كنيتى : أبا عبد الله ، أو أبا بكر ، مما يقع فيه الاشتراك لم أشتهر تلك الشهرة . تفسير أبى حيان ٨ : ١١٣ .

عبد السلام محمد هارون
عضو المجمع